**مكانة علم الصرف ضمن الدراسات اللغوية والنحوية ــ** مقاربة تاريخية

توطئة المحاضرة الأولى 

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وبعد:

قال ابن جني: (( وهذا القبيل من العلم -أعني التصريف- يحتاج إليه جميع أهل العربية أتم حاجة، وبهم إليه أشد فاقة؛ لأنه ميزان العربية، وبه تعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به، وقد يؤخذ جزء من اللغة كبير بالقياس، ولا يوصل إلى ذلك إلا من طريق التصريف؛ )) المنصف: ابن جني ، مج1، ص02.

نشأت الدراسات اللغوية العربية الإسلامية لغاية أساسية وهي خدمة للقرآن الكريم، الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه، تعهّد المولى تعالى بحفظه فقال عزوجل:(( إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ))(1). فهو كما يقول العلماء(( مُفجِّر العلوم ومنبعها، ودائرة شمسها ومطلعها، أودع الله فيه سبحانه وتعالى عِلم كل شيء(...) فالفقيه يستنبط منه الأحكام، ويستخرج حكم الحلال والحرام، والنحوي يبني منه قواعد إعرابه، ويرجع إليه في معرفة خطأ القول من صوابه))(2).

وقد أجمع علماء الأمة في مشارق الأرض ومغاربها على أن الرجوع إلى اللّغة لفهم كتاب الله واستنباط أحكامه، من الواجبات؛ ذلك بأن عناية العرب والمسلمين بالقرآن الكريم، ومحاولتهم فهم ألفاظه ومعانيه، وإدراك دقائقه والكشف عما فيه من أوجه البيان، أدّت إلى العناية باللّسان الّذي جاء به القرآن الكريم.

ورغم كون هذه العناية قد بدأت بمعالجة لحظية لظاهرة اللحن التي ما فتئت تظهر ملامحها على بعض ألسنة العامة(3)، إلا أنها سرعان ما اتخذت صورة حقيقية لصناعة قواعدية مثلى،تتخذ من الحركة الإعرابية ضابطا أساسيا لتحريك جميع مستويات البنى اللفظية التي كانت محل تغيير دائم وفق نظام العوامل، حتى جال في خاطر من لا

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(1) سورة الحجر/9.

**(2) جلال الدين السيوطي: الإتقان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت، لبنان، دط، دت، ج1، ص3.**

**(3) بدأت الدراسات اللسانية العربية بسبب ظهور اللحن الذي يعني الخطأ في الحركة الإعرابية والبنية الصرفية للكلمة، وكانت بدايتها على يد أبي الأسود الدؤلي(ت69ه) واضع نقط الإعراب، وفي ذلك يقول ابن سلام الجمحي:**

**(( وكان أول من أسس العربية، وفتح بابها و أنهج سبيلها، ووضع قياسها: أبو الأسود الدؤلي..)) ابن سلام الجمحي: طبقات فحول الشعراء، تح: محمود شاكر، دار المدني، جدة، م ع س، السفر الأول، ص12.**

يتقن فقه العربية بأنها مجرّد حركات تتوارد على أواخر الكلم في العربية، وحينئذ تتدخل المعاني لتفصح عن سرّ صلاح حركة إعرابية دون أخرى.

وهذا ما يُبين طبيعة الرواية القائلة بأنه حين قرأ أحدهم قوله تعالى:((أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ))(1) ؛(( ورسُولِهِ)) بالكسر؛ يكون قد ارتكب خطأً كبيرا في قواعد اللغة العربية بسبب اللحن الذي وقع فيه.

ولا جرم بأن سبب تحريف هذا المعنى وإفساد العبارة، مردّه الأول إلى النطق بالكلمة مجرورة بالكسرة(ورسُولِهِ). وهو الأمر الذي نهض به أبو الأسود الدؤلي وجسّده بوضوح، من خلال نقطه للمصحف بنقاط تبيّن اختلاف الحركات الإعرابية من قوله تعالى:( بسم لله الرحمن الرحيم) إلى آخر آية ختم بها المصحف. ولا شك بأن هذا الصنيع العظيم هو فاتحة الدراسات اللغوية والنحوية التي تلت **نقط المصحف**، الذي عُرف عند العلماء باسم (**نقط الإعراب**) وفتحت الباب على مصراعيه أمام الباحثين والدارسين للبحث والتقصي والاجتهاد، في كل مستويات اللسان العربي الذي يصون باستقامته القرآن الكريم.

**أولا ـــــ العلامات الإعرابية بين اجتهاد الدّؤلي وعلم الخليل**

بدأ تشييدَ النَّحو العربي(علم العربية) أبو الأسود الدؤلي(سنة 53ه) ــــــ وهو من أعظم قرّاء الذكر الحكيم ــــــ من خلال **نقط الإعراب** و تطور هذا الجهد مع تلميذيه نصر بن عاصم ويحي بن يعمر (توفيا حوالي90ه) من خلال وضع **نقط الإعجام،** ثم تطور البحث النحوي والصرفي مع اللغويين الكبار أمثال: عبد الله ابن أبي إسحاق الحضرمي(ت117ه)، وأبي عمرو بن العلاء(ت154ه)، وعيسى بن عمرو الثقفي(ت149ه)؛ ثم حمل الراية من بعدهم العالم اللغوي الكبير الخليل بن أحمد الفراهيدي(ت175ه)؛ الذي خدم اللّغة العربية من عدّة مستويات. فبدأها بوضع رسم جديدٍ للحركات الإعرابية (الفتحة( **َ**)و الضمة( ُ)والكسرة ( ِ) بدلَ النقاط الدائرية التي وضعها أبو الأسود الدؤلي باعتبارها علامات مجهولة (.) .

**** فبعد أن شاع استعمال نقط الإعراب ونقط الإعجام في المصاحف، تفنن تلامذة أبي الأسود في توظيف الألوان المختلفة، حتى لا يحدث تغيير في الرسم العثماني، وبما أن النقط بنوعيه كان على هيئة واحدة مدورة ولا يمُــيَّـــزُ إلا باللون؛ فقد أشْكِلَ الأمر على

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

**(1) سورة التوبة/الآية: 03.**

على نُسَّاخ المصاحف والمصنّفات اللغوية والعلمية حتى صار الأمر يتطلّب ضرورة تغيير في نقط المصحف وشكله. وإنّ هذ التغيير إما أن يكون في طريقة الشكل و إما أن يكون في طريقة الإعجام(1).

فوضع الخليل سمة الفتح والنصب معا ألفًا مبطوحة فوق الحرف لدلالتها عليها، إذا أشبعت الحركة، وجعل علامة الكسر والخفض ياء تحت الحرف، وعلامة الضمة والرفع واوا فوق الحرف. وزاد على ضبط الدؤلي بأن جعل علامة التشديد(الشدّة) شِينًا مقطوعة التعريق والمط(2).

وبهذا العمل العظيم أزال الخليل ذاك الالتباس الكبير في شكل المصحف ونقطه وأعاد لمتنه الوضوح والدقة، بالإضافة إلى أنّه أدرك بذكائه الكبير كنه العلاقة بين هذه الحركات وحروف المدّ؛ وهي الألف والواو والياء، وقد وافقه في هذا ابن جنّي فراح ينّظر لطبيعة العلاقة الصوتية المتجانسة بين حركات المد الطويلة (الألف والواو والياء) وبين حركات المد القصيرة : الفتحة والضمة والكسرة؛ فيقول موضحا:(( اعلم أن الحركات أبعاض حروف المدّ اللين، وهي الألف، والياء والواو، فكما أنّ هذه الحروف ثلاثة، فكذلك الحركات ثلاث، وهي الفتحة والكسرة والضمّة: فالفتحة بعض الألف، والكسرة بعض الياء، والضمة بعض الواو، وقد كان متقدمو النحويين يسمّون الفتحة الألف صغيرة، والكسرة الياء الصغيرة، والضمة الواو الصغيرة، وقد كانوا في ذلك على طريق مستقيمة))(3) .

بعد أن صاغ الخليل بن أحمد العلامات الإعرابية صياغة نهائية إبداعية، اخترع بذكائه وعبقريته ما يُعرف بوجوه التصرّف أو (قسمة التركيب) (4) ، مستثمرا إيّاها في وضع أوّل معجم عربي على أساس صوتي(5). وسمه **بمعجم العين** .

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(1) ينظر: أبو عبدالله التنسي: الطراز في شرح ضبط الخراز؛ ص51.

(2) المرجع نفسه: ص 52 ،53.

(3) ينظر: ابن جني: سرّ صناعة الإعراب، تح: حسن هنداوي، دار القلم، بيروت، لبنان، ط2، 1993، ج1، ص17.

(4) يسميها المشارقة (نظرية التباديل والتوافيق الرياضية). شوقي ضيف: المدارس النحوية، ص31 وما بعدها.

(5) ينظر: الحاج صالح: منطق العرب في علوم اللسان، موفم للنشر، الجزائر، 2012، ص14 وما بعدها.

****

**ثانيا ــــ دراسة مباحث الصرف ضمن مباحث علم النحو**

1ـــ بداية: ما معنى الصرف والتصريف في اللغة وفي اصطلاح النحويين؟

الصرف لغة، صرف الشيء صرْفًا: ردّه عن وجهه. ونقول: صرف الله عني الأذى.وصرف المال: أنفقه، والكلام: زيّنه، والشرابَ: لم يَمْــــزُجْهُ، و صرَّف الألفاظ : اشتق بعضَها من بعض. وصَّرف الأمر تصريفا: أي بيّنه، لقوله تعالى:( ولقد **صَرّفنا** للنّاس في هذا القرآن من كُلِّ مَثل) الإسراء/89؛ أي : بيــّــنا بكل الأساليب المختلفة.وقوله تعالى: ( و**تصْرِيفِ** الرِيّاحِ والسَحّاب المُسَخَّر بَيْن السَّمَاءِ والأرْضِ)البقرة/164.بمعنى: توجيهها وجهات مختلفة.

**وفي اصطلاح النحويين:** علم الصرف ميزان اللغة العربية الذي لا يمكننا الاستغناء عنه؛ يبحث في التغير الذي يطرأ على **بنية الكلمة** من أصالة وزيادة، وحذف، وصحة وإعلال، وإبدال وقلب ونسبة وتكسير وتصغير، إلى غير ذلك.وقد ذكره العلماء بعبارة: **"التصريف**" لما في الكلمة من معاني التغيير والتقلّب والتحوّل الذي تتخذه أبنية الكلمات في اللغة العربية.

**و التصريف**: على زنة "تَفْعيلٌ " مِنَ الصَّرْفِ، وهو (( علم يتعلق ببنية الكلمة وما لحروفها من زيادة، وأصالة، وصحّة واعتلال، وشبه ذلك)) . ابن مالك: إيجاز التعريف في علم التصريف،ص3.

أي هو تحويل الأصل الواحد إلى أمثلة مختلفة لمعانٍ مقصودة لا تحصل إلا بها، كاسمي الفاعل والمفعول، واسم التفضيل، والتثنية والجمع. وعند العلماء، (( علم **بأنفس الكلم** ا**لثابتة** )). والكلم جمع تكسير مفرده كلمة. وتجمع على كلمات(جمع مؤنث سالم).

و**التصريف** أبلغ من الصرف في معنى التغيير، والصرف أبلغ من التصريف في معنى التحويل والتقليب.لأنه يدل على العمل والتدريب وكثرة التمرين. كما يعدّ التصريف الشق التطبيقي والعملي، أما الصرف فهو حامل للمعنى العلمي والنظري. وأخيرا يدلّ التصريف على كثرة دوران الأبنية واشتقاقها، أما الصرف فيرتبط بالأصول الكلية التي يبنى عليها معرفة أحوال الكلم.

**والتصريف نوعان:** نوع تجعل فيه الكلمة على صيغ مختلفة، وبمعان متشعبة، نحو: قتل وقتَّل وتقاتل، واقتتل الخ...

**والضرب الثاني** من التصريف، هو تغيير الكلمة عن أصلها، من غير أن يدل ذلك التغيير على معنى طارئ، على الكلمة، كتغييرهم: قَوَلَ إلى قَاْلَ.

وهذا التغيير يمكن حصره في:

(النقص) نحو: عدة (**وعَد يعِد عِدة**)، والقلب نحو: قال وباع (الأصل **قوَل وبيَع** )، والإبدال نحو: اتَّـــزن و اتَّــقـــد ( أصلهما: اوْتَـــزَن و اوْتـــقَــــــد). والنّقل، كنقل الحركة في: يقْوُل إلى يقُوْل ويبْيِع ويَبِيْع.

بدأ علم الصرف أو التصريف مع ظهور علم النحو، ويتفق الدارسون في أن علم النحو مصطلح جامعٌ، لأهم القواعد والضوابط التي تتعلق في شكلها ومضمونها بعلم العربية الذي كان يضم في أوله مقاربة للغة والأدب والصرف والاشتقاق والخط وقرض الشعر والعروض وأساليب الخطب والرسائل والمعاني والبيان، فكان البحث في النحوـــ في البدايات الأولى لنشأة الدراسات اللغوية والأدبية ـــ ممتزجا دائما بالبحث في اللغة والأدب وعلم القراءات وأخبار العرب وتاريخهم، ولعل المطّلع على كتاب (الكامل في اللغة والأدب) للمبرّد(ت 216ه) سيجد معظم متنه عبارة عن مزيج من مسائل اللغة والنحو والصرف والأدب، شأنه في ذلك شأن جل المؤلفات النحوية التي لم يكن أصحابها يفرقون بين المصطلحات العلمية التي من شأنها أن تكون حائلا علميا يميز فيه منهجيا بين كل علم وعلم.

و عليه وجد الباحثون بأنّ نشأة علم(الصرف) قد سارت ملازمة لنشأة علم النّحو، لأنّ الأسباب التي اقتضت نشوءهما أسباب مشتركة ، ولم يكن دارسو اللغة يفرقون بين لحن في الإعراب ولحن في بناء الكلمة ، لأنّ مسائل اللّحن الصّرفية كانت تعالج مع مسائل اللحن النّحويّة ، لذا وجدْنا في أوّل عهد التّصنيف في العربية وعلومها إدراج مباحث علم التّصريف في أثناء مباحث علم اللّغة من دون تمييز بين مبحث وآخر، لأنّ الفصل بين هذه الدّراسات لم تتهيّأ له أذهان العلماء بعدُ ، فعلماء النّحو والصّرف كانوا علماء اللّغة ، يزاد على ذلك أنّ النّحو والصّرف يجمعهما غرضٌ واحد ، وهدف مشترك هو ضبط الألفاظ بناءً وإعراباً، وما تقتضيه صحّة الاستعمال اللّغوي وسلامته من اللحن والخطأ ، وبسبب من ذلك نشأ الدّرس اللّغوي عند العرب والمسلمين شاملاً فروع هذا العلم، على اختلاف بين العلماء في الاهتمام بمعالجة جانب معيّن من جوانب اللّغة.

فمن العلماء من جمع بين فروع الدّرس اللّغوي، ومنهم من اهتمّ باللّغة بموضوعاتها

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

() ينظر: عبد العال سالم: الحلقة المفقودة في تاريخ النحو العربي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط2، 1993،ص228 ومابعدها

المختلفة، كالغريب والنّادر والمترادف والمشترك، وغيرها من الظواهر اللّغويّة. ومنهم من

اهتمّ بالتّصريف فشغل حيزاً كبيراً من دراسته، لأنّ الكتب التي أرّخت لهذه العلوم لم

تُبد تمييزاً واضحاً بين النّحو والتّصريف وقد بقي إدراج التصريف في النّحو قائماً منذ أيّامه الأولى، لأنّ المتقدمين كانوا يعرّفون النحو بأنّه(( علم يبحث عن أحوال الكلم العربي إفراداً وتركيباً )). ويؤكد هذا المنحى ابن جني بقوله:(( لا تكاد تجد كتابا في علم النحو إلا والتصريف في آخره))(1) .

وقد ذكر السيوطي بأن أوّل من وضع علم التصريف(2) هو معاذ بن مسلم الهرّاء الكوفي(ت187ه). في حين يُقدّر المستشرق بروكلمان في "تاريخ الأدب العربي" الواضع الأول لعلم التصريف بأنه معاصر أبي مسلم معاذ أبي جعفر الرؤاسي(ت190ه)؛ مستدلا في ذلك بكتاب صنّفه في موضوع **التصغير**.

فقد بدأ علم التصريف قسما من الأبواب النحوية، حيث ظلت جل المباحث التصريفية ممزوجة بعلم النحو بسبب شمولية دلالته اللغوية كما أشرنا سابقا.

وظل علم التصريف قسما من علم النحو فترة طويلة من الزمن، حتى جاء من يخصّصه ويضبط مصطلحاته ثم يخرجه في شكل مصنف ظاهر للعيان وهو إمام الطبقة السادسة من البصريين أبي عثمان المازني(ت248ه).

نعم لقد حاز **المازني** قصب السبق في مجال الدراسات الصرفية عبر مصنَّفه البديع (( التصريف))، حيث اعتبره المؤرخون أوَّل مُصنَّف مستقلّ في علم التصريف، وهو يضاهي في ذلك كتاب سيبويه في النحو.

وفي هذا المعنى يقول صاحب (( كشف الظنون)) :(( وكتاب المازني في التصريف ككتاب سيبويه في النحو، لأن كلّا منهما أصل، ذاك في النحو، وهذا في التصريف))(3).

وكخلاصة لما سبق يقول اللغويون بأن علم الصرف ـــ في نشأته ـــ قد مرّ بثلاثة أطوار(4):

**1 ــ** طور اندماجه مع النحو في قرن واحد دون تفريق أو تمييز: ويمثل هذا الطور أوائل النحاة سيبويه في ( الكتاب) و المبرد في ( المقتضب) وابن السراج في ( أصول النحو).

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(1) ابن جني: **المنصف**(شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جنّي لكتاب التصريف لأبي عثمان المازني) ، ج1، ص4.

(2) ينظر: عبد الله بن حمد الخثران: مراحل تطور الدرس النحوي، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1993، ص112.

(3) حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، مج3، ص288.

(4) ينظر: مهدي آل نهان القرني: الترتيب الصرفي في المؤلفات النحوية والصرفية، مجلة، ص2 وما بعدها

**2 ــ** طور الانفصال الجزئي أو الاستقلال التدريجي للمسائل الصرفية: وممن يمثل هذه المرحلة الفاصلة: المازني في كتابه ( التصريف)، وأبو علي الفارسي في كتابه( التكملة على الإيضاح)، و ابن جني في مصنَّفه ( المنصف).

**3 ـــ** طور الاستقلال الكلي حيث صار علم الصرف نظيرا لعلم النحو: ويمثل هذا الطور من المتأخرين: الجرجاني وابن عصفور وابن الحاجب وابن مالك وغيرهم.

**ثالثا ــــ الأصول التي بنيت عليها دعائم علم الصرف**

**1ـ سيبويه: الكتاب** **( 180ه)؛** ظهر مصطلح التصريف تحت مُسمّى (( **القياس اللغوي**))، ويظهر هذا المعنى من خلال باب وسمه سيبويه بقوله: (( هذا باب ما بنت العرب من الأسماء والصفات و الأفعال غير المعتلة، وما قيس من المعتل الذي لا يتكلمون به ولم يجيء في كلامهم إلا نظيره من غير بابه، وهو الذي يسميه النحويون التصريف والفعل))(1).

ومعنى كلام سيبويه بأن التصريف هو تغيير الكلمة من وزن إلى وزن آخر، سواء كان من باب المعتل أو من باب الصحيح، وعليه يقاس الصحيح على وزن المعتل الذي لم يأت على صورته والعكس صحيح، وهو ما يعني ضمنيا قياس غير المسموع من كلاك العرب على ما سمع من كلامهم، بغرض التمرين والتدريب على معرفة قوانين الإبدال والقلب والحذف، والميزان الصرفي.

**2ـــ الـــمـُــبـَـــرّد: الــــمُـــقْتَضَب (ت285ه)؛** لم يميز بين المواضيع الصرفية والنحوية، واكتفى بذكر بعض المباحث المتعلقة بالتصريف(2)، كالنسب والمقصور والممدود.

**3ــ ابن السَّراج: الأصُول في النّحو**( 316ه)؛ تحدث بوعي عن علم التصريف من خلال قوله: (( و هذا الحدّ إنما سُمّي تصريفا لتصريف الكلمة الواحدة بأبنية مختلفة، وخصوا به ما عرض في أصول الكلام من وذواتها من تغيير، وهو ينقسم خمسة أقسام: زيادة وإبدال وحذف، وتغيير بالحركة والسكون، و إدغام له حدٌّ يعرف به))(3).

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(1) سيبويه: الكتاب، ج4، ص242

(2) المبرد: المقتضب، تح: محمد عضيمة، مطابع الأهرام، القاهرة، 1994، ج3، ص79، 133، 150.

****(3) ابن السراج: الأصول في النحو، تح: عبد الحسين الفتلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط3، 1996،ج3، ص231.

**4ـــ ابن جني(392ه)**؛ ألف كتابا في علم الصرف سماه: **التصريف الملوكي**، وكتاب (( المنصف)) وهو شرح كبير لكتاب التصريف للمازني، عرّف فيه علم الصرف بكثير من الأمثلة والتمارين في قوله: (( وهذا القبيل من العلم أعني التصريف، يحتاج إليه جميع أهل العربية أتمّ حاجة، وبهم إليه أشدّ فاقة، لأنه ميزان العربية، وبه تُعرف أصول كلام العرب من الزوائد الداخلة عليها، ولا يوصل إلى معرفة الاشتقاق إلا به، وقد يؤخذ جزء من اللغة كبير بالقياس، ولا يوصل إلى ذلك إلا من طريق التصريف، وذلك نحو قولهم: إن المضارع من فَعُلَ لا يجيءُ إلا على يَفْعَلُ بضم العين. ألا ترى أنّك لو سمعت إنسانا يقول: كرُمَ يكْرَمُ بفتح الراء من المضارع، لقضيت بأنه تارك لكلام العرب؛ سمعتهم يقولون أو لم تسمعهم؛ لأنّك إذا صحَّ عندك أن العين مضمومة في الماضي قضيت بأنها مضمومة في المضارع أيضا قياسا على ما جاء(...) ومن ذلك أيضا قولهم: إن المصدر من الماضي إذا كان على مثال أفْعَلَ يكون مُفْعلا بضمّ الميم وفتح العين نحو؛ أدخلته مُدْخلا، وأخرجْته مُخْرَجا...فهذا ونحوه مما يُسْتدرك من اللغة بالقياس))(1).

ورغم هذه التمارين الرياضية التي مثّل بها ابن جني في تبيينه لموضوعات التصريف؛ إلا أنّه يُصرّح في معرض حديثه بديمومة بقاء علم التصريف قسما تابعا لعلم النحو ونحن في منتصف القرن الرابع الهجري؛ يقول ابن جني:(( إلا أن التصريف وسيطة بين النحو واللغة يتجاذبانه، والاشتقاق أقعد في اللغة من التصريف، كما أن التصريف أقرب إلى النحو من الاشتقاق، يدلّك على ذلك أنك لا تكاد تجد كتابا في النحو إلا والتصريف في آخره، والاشتقاق إنما يمرّ بك في كتب النحو منه ألفاظ مشرّدة لا يكاد يعقد لها باب))(2).

ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(1) ابن جني: المنصف شرح الإمام أبي الفتح عثمان بن جني النحوي لكتاب التصريف، تح: إبراهيم مصطفى وآخرون، إدارة إحياء التراث القديم، ط1، 1954، ج1، ص2.

(2) المصدر نفسه، ص4.

وبهذا العبارات المسترسلة من ابن جني نستطيع القول بأنه رغم التطور الحاصل في المباحث الصرفية من بداية الكتاب لسيبويه إلى غاية كتاب المنصف لابن جني، عبر كل هذه المدة الزمنية (منتصف القرن الرابع) لايزال علم الصرف قسما تابعا لعلم النحو في المبحث والتأصيل.

**رابعا ــــ ظهور علم الصرف بأوّل مصنَّفٍ منهجي**

إن المتتبع للتطور التاريخي لعلم الصرف يقع في خاطره ذلك التتابع المعرفي الذي ظل يحيطه من كل جوانبه، حتى إذا وقع بين أيدينا كتاب **المفتاح** في الصرف للعلامة عبد القاهر الجرجاني(471ه) أدركنا بأننا أمام ميلاد حقيقي لعلم الصرف بكل ما تعنيه هذه الكلمة من دلالة؛ كيف ونحن أمام عالم مجدّد في مجال الدراسات اللغوية (النحوية والصرفية)، صرف همته إلى إتقان اللسان العربي من خلال مصنفات نحوية وصرفية؛ أهمها في الصرف **المفتاح**؛ الذي فتح به باب الاختصاص بقوله: (( اعلمْ أنَّ التصريفَ "تَفْعيلٌ " مِنَ الصَّرْفِ ، وهو أنْ تُصرِّفَ الكلمةَ المُفْرَدَةَ ، فَتَتَوَلَّد منها ألفاظ مختلفة، ومعانٍ متفاوتة.))(1) إلى أن يقول: (( ثُمَّ إِنَّه مُشْتَرك بين الأسْمَاءِ والأفْعالِ في الصِّحَّةِ والإعْلالِ ، والقَلْبِ ، والإِبْدالِ ، والوَزْنِ ، والتَّمْثِيلِ . وهُوَ أنْ تقَابِلَ حُرُوفَ الكَلِمَةِ الثلاثِيَةِ: بِالفَاءِ، والعَيْنِ، واللّام، وتُكَرِّرَ اللاَّمَ فِي الرُّبَاعِيِّ مُطْلَقاً، وَكَذَا فِي الاسْمِ الخُمَاسِيِّ، إِذْ لا خُمَاسِيَّ فِي الفِعْلِ لِثِقَلِهِ أصْلِيًّا))(2).

وبهذا يتبيّن للقارئ صحة الانتقال من عمومية علم النحو إلى خصوصية علم الصرف كمبحث علمي ومنهجي، يختص بدراسة بنية الكلمة من حيث الاشتقاق والصحة والإعلال والقلب والإبدال وغيرها من الأمور التي تطرأ على أنفس الكلم فتتطلب معرفتها، تمرريها على الميزان الصرفي (**ف** **ع** ***ل***).

**خامسا ــــ ابن عصفور الإشبيلي ودعوته إلى تقديم علم الصرف على علم النحو**

إذا كان مُصنَّف المازني قد نال فضل التلميح إلى ضرورة استقلال علم الصرف عن علم النحو، وإذا كان الجرجاني قد حاز فضل تثبيت استقلال علم الصرف عن علم النحو بشكل بيّن وواضح، فإن ابن عصفور الإشبيلي ( ت669ه)؛ قد فاق أهل عصره لا بفصله

ــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(1) الجرجاني: المفتاح في علم الصرف، تح: علي توفيق الحمد، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص26.

(2) المرجع نفسه، ص ن.

مطلقا لعلم الصرف عن علم النحو، بل بدعوته المبَّكرة إلى ضرورة تقديم على الصرف على علمالنحو بقوله في مقدمة كتابه الممتع في التصريف:(( وقد كان ينبغي أن يُقدَّم علم التصريف على غيره من علوم العربية، إذ هو معرفة ذوات الكلم في أنفسها، من غير تركيب ومعرفة الشيء فينفسه قبل أن يتركب، ينبغي أن تكون مُقدَّمة على معرفة أحواله التي تكون له بعد التركيب. إلا أنّه أخِّر، للطفه ودقّته، فجُعل ما قدِّم عليه من ذكر العوامل توطئة له، حتّى لا يصل إليه الطالب، إلا وهو قد تدرّب، وارتاض للقياس))(1).

و يعدّ ابن عصفور الإشبيلي من علماء الأندلس الكبار؛ يصفه المؤرخون بأنه حامل لواء اللغة العربية في زمانه، ومن العلماء المحققين الذين ألّفوا في **فن الصرف**، وجعلوا له تصنيفا مخصوصا، وهو كتاب **''الممتع في التصريف''** الذي وصفه الدارسون بأنه من أمثل كتب علم الصرف التي قلّما يخلو من مسائله كتاب من كتب النحو.

ومن فرط قيمته لدى النحويين، أعجب به أبو حيّان الأندلسي كثيرا، إلى درجة أنه قام بإخراجه في صورة مصنّف آخر، سمّاه: **المبدع في التصريف**(2)، مبيّنا بأن كتاب: (( الممتع )) ، أحسنَ ما وضع في هذا الفن ترتيبا، وألخصه تهذيبا، وأجمعه تقسيما، وأقربه تفهيما.



ـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــــ

(1) ابن عصفور الإشبيلي: الممتع في التصريف، تح: فخر الدين قباوة، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ج1، ص30، 31.

(2) ينظر: أبو حيان: المبدع في التصريف، تح: عبد الحميد السيّد طلب، دار العروبة، الكويت، ط1، 1982، ص46.